"مصر والنشاط الحضاري في بلاد المغرب ابان مرحلة الفتح العربي"

أ.د/ محمد أحمد محمد أحمد بديوي•

ملخص البحث:

ارتبط تاريخ بلاد المغرب خلال مرحلة الفتح العربي بتاريخ مصر الإسلامية بصورة جعلت تطوره ونشاطه السياسي والحضاري مرهونا بالإرادة العربية في مصر حتى صار الإقليمان يمثلان جناحا واحدا للدولة الإسلامية، بحيث صار من الميسور ان يحدث التقدم العربي خلال تلك الفترة في فتح المغرب، واحراز نتائج بناء حضارته تبعا لنجاح القيادة العربية المصرية في اشرافها ووقوفها على عمليات هذا الفتح، وكان ان تجلى ذلك الإرتباط بين هذين الإقليمين المصري والمغاربي فيما اقترن به من تأثير ملموس للأول في تطور الحياة السياسية والحضارية عند المغاربة، هذا وقد اتخذ ذلك التأثير مظاهر خاصة في عدة مناحي عالجها البحث في المحاور التالية:

- مصر والآثر العسكري في فتح المغرب .
- مصر والإدارة العربية في بلاد المغرب إبان مرحلة الفتح .
- مصر والحياة العمرانية في بلاد المغرب إبان مرحلة الفتح .
- مصر والنشاط الثقافي في بلاد المغرب إبان مرحلة الفتح .

• أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - كلية الآداب – جامعة أسيوط

المنارة للاستشارات
www.

مقدمة:

١- مدخل للطرح

نسوق في الصفحات التاليات طرحا يعالج الأسباب الحقيقية التي جعلت من مصر والبلدان المغاربية[١] قطاعا واحدا ، يرتبط كل منهما بالآخر داخل نسيج واحد في مواجهة التطور الذي كثيرا ما تصنعه ظروف موضوعية من شأنها أن تسهم في ظهور عصور جديدة ؛ وقيام دول وحكومات بتأثير الأسباب البيئية السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وكان ان شهد القرن السابع الميلادي تطورا طرأ علي عالم العصور الوسطي بظهور الاسلام ؛ وقيام دولته ، وهي الدولة التي صادفت نجاحا كبيرا بفضل إستراتيجية توسعية وضع أساسها النبي **محمد "صلي الله عليه وسلم"** ، بهدف الدعوة إلي الإسلام ، ونشره في غير بلاد الاسلام في وقت عانت فيه بلاد هذا العالم جور وظلم الساسان والبيزنطيين آنذاك الذين تقاسموا بتأثير سياستهما الكهنوتية والمالية الغاشمة السيطرة علي هذا العالم الأمر الذي أوجب حدوث ما لم يكن فيه بد ليصطدم في النهاية حاملو رسالة الاسلام بعد وفاة النبي **محمد "صلي الله عليه وسلم"** ؛ بهاتين القوتين الكهنوتيتين تلبية لمطالب شعبيهما المقهورة[٢] في العراق وفارس والشام ومصر والمغرب ؛ حيث قام الفاتحون العرب في عهد الخليفة **عمر بن الخطاب** (١٣- ٢٣هـ) بإتمام فتح هذه البلاد ؛ وجعلوها ولايات عربية خاضعة لسلطان ونفوذ الخلافة الإسلامية ، وظلت كذلك أيام الراشدين والأمويين والعباسيين .

وكان أن يسرت الجغرافيا طريق وصول العرب الفاتحين إلي النواحي البيزنطية ، حيث وجهت أنظارهم نحو فتحها في ظل ضرورات عسكرية ألزمتهم بخوض مرحلة جهادية استكمالا وتحقيقا للاستراتيجية التوسعية العربية ، فلم ير الفاتحون بدا من فتح البلاد المصرية بعد أن أتموا فتح الشام سنة ١٥ هـ تأمينا لحدود الشام الجنوبية : كما اتجهوا إلي فتح بلاد المغرب بعد ان فتحوا مصر (٢٠ هـ) تأمينا لحدودها الغربية .

---

١ – عرفت في المصادر العربية القديمة بافريقية التي تطل علي السواحل المتوسطية ، وكان أن اصطلح عند الجغرافيين بتقسيم بلاد المغرب إلي ثلاثة أقسام ؛ المغرب الأدنى والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، ،ويصح استخدام مصطلح بلاد المغرب أو البلاد المغاربية بصيغة الجمع عند الحديث عن بواكير الحياة الاسلامية في هذه البلاد؛ وكثير من المحدثين يفضلون الإشارة الي السواحل المتوسطية الأفريقية في عصر الولاه بهذه الصيغة تعبيرا عن الوحدة السياسية التي تجمع بينها ؛ وتقر بانتمائها إلي دار الخلافة في دمشق أو بغداد .

٢– ساعد الفاتحين العرب في خوض هذه المهمة ترحيب الأهالي الذين خضعوا لظلم الكهنوت الزرادشتي في العراق وفارس ؛ والاضطهاد المالي والديني البيزنطي في مصر والمغرب .

المنارة للاستشارات
www.

وإذا نظرنا إلي السياسة البيزنطية الجائرة التي سلكها الحكام البيزنطيون تجاه أهالي مصر والمغرب نراها متمثلة في المجالين الديني والمالي ، وهذه السياسة خلقت مناخا صحيا مهد للفاتحين سبيل احتواء الأراضي المصرية والمغاربية .

ولا ننسي أن الفاتحين العرب قد أضافوا لأنفسهم خبرات عسكرية بتأثير ما أقدموا عليه من خطط وفنون قتالية في مواجهة الحصون الرئيسية والفرعية البيزنطية في الشام ومصر ؛ وأثبتوا ملكيتهم لأساليب قتالية استخدموها في مفاجأة الحصون المغاربية وتخليصها من الحاميات البيزنطية .

ومن الثابت أن فاتحي مصر قد قاموا دون غيرهم بخوض مرحلة جهادية لفتح نواحي المغرب ، منذ أن بدءوها في سنة ٢٠ هـ ، وظلوا عليها قرنا من الزمان ، وخلال تلك المرحلة الطويلة الأجل ، أنشأوا في مصر مظاهر حضارية عمروا بها النواحي المصرية ؛ ومصروا حاضرتها الجديدة (الفسطاط) ، وبتأثير ذلك كله قاموا بتمصير المغرب في صور وأشكال لا تختلف كثيرا عن ما صنعوه في مصر بعد أن أنشأوا الحاضرة ، وأدخلوا عليها التحسينات والإضافات .

وعلي كل حال فقد كانت الظروف الموضوعية التي تعرض لها المصريون والمغاربة الأساس الذي جعل من مصر القاعدة التي انطلق منها آثار التغيير والتطور نحو بلاد المغرب في النصف الأول من القرن الأول الهجري ، منتصف القرن السابع الميلادي .

ولا ننسي أن هدف الفاتحين للنهوض بفتح البلاد المغاربية هو ذات الهدف الذي سعي الي تحقيقه أقرانهم الفاتحين للعراق وفارس والشام ومصر ، وينصب حول رغبتهم في الدعوة الي دينهم الجديد ونشره في غير بلاد الاسلام ، فضلا عن عوامل آخري كثيرة ؛ نذكر منها ما سعي إليه هؤلاء الفاتحون في بلاد المغرب كالثراء[٣] الذي صار عاملا مشجعا أمامهم فيما حققوه من فتوحات سابقة[٤] .

وكان لسياسة العرب تجاه الأقباط في مصر وبما انطوت عليه من الود واللين في وقت أنهوا فيه عهد الاضطهاد الذي لحق بهم صدي عميق في نجاح حركة التدفق العربي في برقة وطرابلس ؛ وهي حركة تشهد علي أن الفاتحين العرب خرجوا من مصر صوب الحدود الغربية دونما حدوث معارضة قبطية .

والمعروف أن البربر (المغاربة) كانوا قد استوثقوا من أمر القبط ومسيحي الشام اليعاقبة ،واندمجوا معهم وشاركوهم أحزانهم في عهد حكم الامبراطور البيزنطي **هرقل** ، ومما ساعد علي ذلك أن الاضطهاد قد روع نفرا غفيرا من رهبانهم ، فأخذوا في النزوح علي بلاد المغرب من الشام والاسكندرية حاملين معهم مذهبهم اليعقوبي ،

---

٣ – ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢١٨م): معجم البلدان ، القاهرة ، مطبعة السعادة ،١٩٠٦م، جـ٢ ، ص ١٣٤ – وجـ٦ ص ٢٤و ٢٥ .

٤ – حسين مؤنس: " فتح العرب للمغرب " ، مصر ١٩٤٧م، ص ٤٢.

المنارة للاستشارات
www.

وأخذوا ينشرون دعايتهم هناك ، وفي ذلك كله تشجيع للعرب الزاحفين علي برقة وطرابلس وسائر البلاد المغاربية ، في ظل ذلك الاقتراب الناشيء بين قبط مصر والبربر ؛ ومما يحسب ان بعض قبائل برقة وطرابلس كانوا من قبطها[٥] مما ينهض دليلا علي انهم مهدوا لدخول العرب الي بلادهم .

هذا وسوف يعالج الطرح الأثر المصري في تنشيط الحياة الحضارية المغاربية ابان مرحلة الفتح العربي (٢٠ – ٩٢هـ) تبعا لأسبقية حدوث تأثير كل أثر ؛ حيث نبدأ بالاشارة إلي الفنون القتالية التي استخدمت بتأثيرات بيئية مصرية – لفتح بلاد المغرب ، ومنها تنتقل إلي إدارة هذه البلاد وعلاقتها بالدولة الاسلامية وولاية مصر ، الأمر الذي لم يتأت إلا بفضل نجاح عمليات الفتح ؛ وفي محور ثالث نشير إلي الحياة العمرانية المغاربية التي واكبت هذه المرحلة الجهادية ؛ وما تعكسه من آثار مصرية وافدة علي البيئة المغاربية ، ثم يأتي إفرادنا لمحور رابع نعالج به الأثر المصري في بناء هذا التطور الثقافي الذي لازم ظهور ذلك العهد الجديد بكل أبعاده .

أولا : مصر والأثر العسكري في فتح المغرب :

أوجبت الضرورة العسكرية التي تقضي بتامين الحدود الغربية للبلاد المصرية إلي الزحف تجاه برقة بعد أن تفوق العرب الفاتحون علي الحاميات البيزنطية التي تمركزت داخل الحصون والقلاع الرئيسة والداخلية المنتشرة علي طول البلاد المصرية وعرضها حاملين معهم زادا من الخبرات والتجارب التي اكتسبوها في مواجهة الحصون البيزنطية .

أدرك العرب الفاتحون قبل نزوحهم من مصر صوب برقة أن أهالي المغرب سوف يرحبون بهم ويسعون إلي نصرتهم بنفس القدر الذي صادفوه عند أقباط مصر ، ذلك لان الأقباط والمغاربة ضاقوا ذرعا من ظلم وجور بيزنطة في عقيدتهم وأموالهم وأنفسهم[٦] .

أخذت الخطط العسكرية العربية تتمحور حول مواجهة الحصون في مصر بالالتفاف حولها ، وتامين المواقع المصرية في خطط وفنون قتالية تعتمد علي الزحف والانتشار والجرأة في مفاجاة تحصينات ومواقع الحاميات البيزنطية ؛ ومكنت مثل هذه الفنون القتالية الفاتحين آنذاك من الحركة في كل مكان بحرية تامة دونما خوف أو وجل ؛ ذلك انه لم يقف الجنود العرب – آنذاك – جامدين اذا ما أبطأ عليهم الفتح

---

٥ – حسين مؤنس : نفسه ، ص ٤٤ و ٥٣

٦ – انظر ساويرس بن المقفع (ت: اواخر القرن الرابع الهجري/ اواخر القرن العاشر الميلادي) : " سير الآباء البطاركة " ، القاهرة ١٩٤٣م، المجلد الأول، القسم الأول– حسين مؤنس " " الفتح العربي للمغرب " ص ٥٠ :

Manier Henri: L egypte pyzantine,(Prices de L`Histoire d`Egypt Paris 1937) p 76 – 78

المنارة للاستشارات
www.

لحصن بعينه ؛ أو موقع حصين بذاته ، بل سرعان ما كانوا يتوغلون هنا وهناك إزاء ما تفرضه الضرورات العسكرية ، للحيلولة دون أن تحظي الحاميات البيزنطية الجامدة داخل حصونها بمدد عسكري، أو بتجمعات تأت اليهم من مواقع آخري ، وهكذا كانت لهذه الفنون القتالية التي استخدمها الفاتحون العرب في فتح مصر دورها الكبير في فتح الكثير من المواقع المغاربية .

ومما ساعد علي نجاح العمليات العسكرية التي خاضها الفاتحون لفتح بلاد المغرب انطلاقا من مصر أن القيادات العربية التي كان لها فضل إنجاح هذه العمليات كانوا ممن اثبتوا كفاءة في اقتحام الحصون المصرية ، ونذكر من هذه القيادات ممن تولوا رئاسة الزحف الي برقة وطرابلس باختيار **عمرو بن العاص** كلا من **خارجة بن حذافه** ، و**عقبة ابن نافع** ، و**عبد** الله بن الزبير ، و**يسر بن أبي أرطأة**[٧].

ونسوق هنا جانبا من المحاولات العربية لفتح برقة بما يكشف لنا تماثل تلك المحاولات مع سابقيها التي استخدمت في فتح النواحي المصرية ، ذلك أن العرب في فتح كليهما اعتادوا علي إرسال حملات استكشافية للمواقع المراد غزوها للوقوف علي تحصيناتها كعملية تمهيدية يتبعونها بغزو منظم في وقت لاحق ، ناهيك عن أثر تلك المحاولات في ترهيب وتخويف الحاميات البيزنطية ، وفي هذا الاطار نشير إلي أول عهد العرب بفتح بلاد المغرب ، حيث بادر **عمرو بن العاص** وهو علي فتح الإسكندرية بإرسال حملة استطلاعية الي برقة تحت إمرة **عقبة بن نافع**[٨] ممهدا بذلك لحملته التي ترأسها هو بنفسه لفتح هذه الناحية سنة ٢٢ هـ بعد أن فرغ من فتح البلاد المصرية[٩] ومما قيل أن الحملة الاستطلاعية قد نبهت البربر في برقة إلي قوة العرب ؛ ومهدت للمحاولة الثانية[١٠] ، ولم يكن ذلك إلا ترديدا لمحاولته التي قام بها أثناء تطويقه لحصن بابليون ، حيث اتجه في بعثة قصيرة الأجل إلي الفيوم والصعيد الأدني تأمينا لظهر جيشه الذي عهد إليه بحصار الحصن ؛ وسرعان ما أتم هذه المهمة ، وعاد أدراجه للانضمام إلي جنده الرابضين علي اسوار بابليون[١١].

---

٧ – جاءت هذه القيادات ضمن المدد العسكري الذي بعث به الخليفة عمر بن الخطاب إلي عمرو بن العاص نجدة لجيشه حين كان علي فتح بابليون (ابو المحاسن(ت٨٧٤هـ/ ١٤٩٦م) : " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة "، القاهرة ١٩٦٣م، جـ ١ ، ص ٢٣).

٨– ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢ .

٩ – ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، صفحة ٢٢٩.

١٠– أنظر حسين تونس : نفسه ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، وكان أن اختلف المؤرخون حول الهدف من ابتعاث عقبة بن نافع أولا إلي برقة ، علي أن السياق العام في شأن الحروب التي دارت في مصر وحدودها الغربية يجعلنا نأخذ بصحة أمر أن هذا الابتعاث لم يكن إلا محاولة إستطلاعية إستباقية مهد بها عمرو بن العاص لغزوه اللاحق المنظم .

١١ – حنا النقيوسي(ت: اواخر القرن السابع الهجري/ السابع الميلادي): " تاريخ " ، ص ٥٥٥ .
Chronique de jean Eveque de Nikiou text

المنارة للاستشارات
www.

ومهما يكن من أمر فإن نجاح **عمرو بن العاص** في فتح برقة لم يكن إلا بفعل ما حالفه من توفيق ومهارة عسكرية بدت آثارها في الغارات التي شنها علي الاسكندرية ؛ فضلا عن ما عاد عليه من نتائج حققها عقبه بن نافع فيما سبق من حملته العسكرية الاستطلاعية ، لينتهي الامر بالمصالحة بين أهالي برقة ووالي مصر **عمرو بن العاص** علي جزية قدرها ثلاثة عشر الف دينار[١٢] علي أن تلك الحملة التي صالح بها والي مصر **عمرو بن العاص** أهالي برقه كان لها أثارها الايجابية ؛ فقد شجعت الجند العرب القادمين من مصر علي الاستيطان في برقة في ظل توفر مقومات تسمح باستطابة الحياة المدنية فيها في وقت مبكر انشغلوا فيه بحياة الجندية ، ونذكر من ذلك توفير المياة من الأمطار والأبار[١٣] ؛

والفاكهة والخيرات الواسعة[١٤] ، وقربها من الفسطاط قاعدة العرب وحاضرة الولاية في مصر ، ويكفينا للدلالة هنا ما أشار إليه البلاذري[١٥] بأنهم (كانوا أخصب قوم بالمغرب ، ولم يدخلها – يعني برقه – فتنه .....) .

ولم يتخل والي مصر **عمرو بن العاص** عن استخدام كل المهارات التي اكتسبها من فتح الحصون المصرية حين كان يباشر عملياته العسكرية في طرابلس ، إذ رأي أن يسير بنفسه لفتح مدائنها في وقت كان يبعث فيه فريقا من جنده إلي الداخل لاحتواء مراكز العمران الصحراوية الداخلية[١٦] ، وتامينا لمؤخرة جيشه في الساحل من هجمة قد تأتيه من الداخل الأمر الذي لا يختلف عن ما أقدم عليه عند اجتيازه لأراضي الفيوم والصعيد الأدني تأمينا لجيشه الرابض علي أبراج حصن بابليون ؛ وظل **عمرو بن**

Ethiopten pubile t traduit par M.H zotenberg
(Notices et extraits des Manuscrits de la Biblotpeque Nationale et autres Bibliot heque- paris 1883)

١٢ – ابن عبد الحكم(ت ٢٤٧هـ/ ٨٧١م) : "فتوح مصر واخبارها"، ليدن ١٩٢٠م، ص ٢٢٩ – البلاذري(ت ٢٩٧هـ/٨٩٢م) : " فتوح البلدان " ،نشر صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م وبيرون ١٩٨٣م،الجزء الأول، ص ٢٢٥ – ابو المحاسن : " النجوم الزاهرة " جـ١ ، ص ٧٥ ، ومن الملاحظ أن الروايات التي أوردها الأقدمون وعلي رأسهم "ابن عبد الحكم" "والبلاذري" في شأن قيام عمرو بن العاص بمصالحة أهل برقة تتوافق مع المنطق ؛ وسياق الأحداث ذات الصلة بعمليات الفتح في الاسكندرية ، وبرقة بينما يخالفهم "المقريزي " معتبرا ان عمرا افتتح برقة عنوة دون أن يأتي بسند واحد من الثقاة ، الأمر الذي لا نأخذ بصحته خصوصا أنه من مؤرخي القرن التاسع الهجري (انظر ابن عبد الحكم : نفسه ، ص ٢٣٠ – البلاذري : نفسه ، ص ٢٢٥ و ٢٢٦ – المقريزي : " الخطط " ،جـ ١ ، ص ٢٩٨) .

١٣– إبن عبد الحكم : نفسه ، ص ٢٢٩ .

١٤– ياقوت الحموي : نفسه ، ص ١٣٣ و ١٣٤ .

١٥– نفسه ، ص ٢٢٦ .

١٦– راجع حسين مؤنس : نفسه ، ص ٥٦ و ٥٧ .

المنارة للاستشارات
www.

العاص يوالي زحفه بين الداخل والصحاري إلي أن عاد أدراجه ليضرب التحالف الذي نشأ بين **جريجوريوس** و**البربر** ويحول دون ؛ استقلاله بالجهات الشمالية عن بيزنطة[١٧] غير أن الارتداد أضعف من فعالية ذلك الدور الذي خاضه **عبد الله بن سعد بن أبي سرح** ، الذي تولي قيادة العمليات العسكرية خلفا **لعمرو بن العاص** باعتباره عاملا علي مصر بأمر من الخليفة **عثمان بن عفان** (٢٣ – ٣٥ هـ) .

انطلق عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل مصر وقائد جيوشها العسكرية لاستكمال جهود **عمرو بن العاص** في فتح طرابلس ، وكان ان أدخل في جيشه عناصر قبطية وبربر دعما للعناصر العربية التي مثلت السواد الأعظم لجيشه ، وأضاف لذلك كله المدد العسكري العربي الذي بعث به الخليفة **عثمان بن عفان** علي غرار ما أقبل عليه **عمرو بن العاص** حين كان علي حصار حصن بابليون ، وقد اثبتت هذه الخطة فعاليتها عندما واجه سنة ٢٧ هـ **جريجوريوس** عند سبيطلة في معركة فاصلة وقتله[١٨] واستكمالا لإتمام خطته إندفع نحو الشمال تأمينا للمواقع التي دخلت في حوزته[١٩].

ويذكر البلاذري[٢٠] أن **عبد الله بن سعد ابن أبي سرح** فرق السرايا في البلاد في نواحي طرابلس ، وأصاب غنائم كثيرة ، مما أشعر عظماء البربر بأنه لا قبل لهم بالعرب ومالوا إلي الصلح مقابل آداء قطيعة لعامل مصر قدرها ثلاثمائة قنطار من الذهب علي ان يكف عنهم ويخرج من بلادهم ، فوافقهم علي ذلك[٢١]

بعد أن أقام ببلادهم سنة كاملة وشهرين[٢٢]، وعلي كل حال فإن القطيعة والمصالحة التي عادت علي مصر بالنفع من جراء عمليات الفتح في النواحي المغاربية الشرقية إنما تشير إلي دور مصر في مباشرة المسائل المالية وتصريفها في أبوابها في ضوء الأولويات التي تقرها الأحكام وتتوافق مع سياق العمل المالي أبان عمليات الفتح

سرعان ما توقفت العمليات العسكرية في البلاد المغاربية بعودة **عبد الله بن سعد بن أبي سرح** إلي مصر ، وانشغال مصر بأحداث الفتنة التي منيت بها الدولة الاسلامية وساهمت فيها في عهد الخليفة عثمان ، مما يشهد علي أن فتح البلاد المغاربية يشتد أو

١٧– حسين مؤنس ، ص ٧٤ و ٧٧ .

١٨– الكندي(ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م) : " الولاة والقضاة "، بيروت ١٩٠٨م، جـ ١ ، ص ١٣ .

١٩– ابن عذاري المراكشي(ت اواخر القرن السابع الهجري) :" البيان المغرب في اخبار المغرب"، ليدن ١٩٤٨ وبيروت ١٩٥٠ ، جـ ١ ، ص ٧٠ .

٢٠– المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .

٢١–ابن عذاري : نفسه والصفحة .

٢٢– المقصود ليس الاقامة بالمعني الحرفي ؛ والمعني يشير ضمنا إلي أن أهالي طرابلس ظلوا تابعين لولاية مصر خلال تلك الفترة الزمنية ، ولم ينصرف عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن ولايته في مصر بطبيعة الحال . (انظر ابن الأثير " الكامل " ، حوادث سنة ٢٧هـ) .

المنارة للاستشارات
www.

يتراجع تبعا للدور المصري الذي اتخذ من فسطاطه قاعدة الانطلاق صوب هذه النواحي .

علي أن النتائج التي ترتبت علي مرحلة الفتح زمن الراشدين في الأراضي المغاربية لم تكن حاسمة ، اذ ما زال الأمر بحاجة إلي خطوات وثابة لاستكمال فتح هذه النواحي ؛ وهو ذلك الدور الذي قام به الجنود العرب باشراف من عامل مصر .

وكان أن حققت الحملات العسكرية في الحدود الغربية باشراف القيادة المتمثلة في عامل مصر عمرو بن العاص ؛ هدفين رئيسين وهما ، تأمين الحدود المصرية ، وحصول الفاتحين علي مغانم وموارد ، وكان لهذه الموارد أثارها في ترقية الحياة العسكرية عند الجنود العرب في مدينة الفسطاط التي كانت آنذاك معسكر ا للجند وقاعدة انطلاق للحاميات العربية نحو البلاد المغاربية ، ومن الطبيعي ان تستغل مثل هذه المغانم في تغطية نفقات الجنود العرب في الفسطاط ضمن العطاء الذي كان يكفل لهم أرزاقهم وارزاق عيالهم[٢٣] علي ان العطاء الذي كفلته الدولة الاسلامية منذ عهد الخليفة **عمر بن الخطاب** وأفاد الفاتحين علي نحو ما ذكرنا لم يمنع حدوث مشاكل سياسية آخري ساهمت فيها مصر وأدت إلي حدوث الفتنة الكبري في الاسلام مما كان سببا رئيسا في انشغال العرب في مصر عن مواصلة فتح البلاد المغاربية لفترة من الزمن توقف خلالها التدفق العربي إلي هذه الجهات ، وظل علي تلك الحال إلي قيام دولة بني أمية .

سرعان ما عادت الفتوحات سيرتها من جديد لاتمام فتح الجناح المغاربي الذي عرف عند الاقدمين بـ (افريقية) ؛غير أن العودة هذه المرة قد جاءت في ضوء سياسة جديدة رسمها الخليفة **معاوية بن أبي سفيان** (٤٠ – ٦٠هـ) ؛ اعتمد بمقتضاها علي

٢٣– تفيد المصادر بان توزيع الغنائم قد أصابه تعثرا بسبب ما أشيع من أن مروان بن الحكم استغل قربه من الخليفة عثمان بن عفان ، فاصاب من الفيء والغنيمة ما أصاب حين كان يقوم علي بيت المال في المدينة المنورة ؛ وهناك من الروايات التي تؤكد عدالة الخليفة عثمان (رضي الله عنه) ، غير أنه في حالة صحة الرواية الأولي ، فإن ما أصابه مروان بن عبد الحكم لا يقلل إطلاقا من مكانة الخليفة ونزاهته ؛ ذلك أن الموقف الذي أقبل عليه مروان – آنذاك – انما هو موقف شخصي افتعله من نسج تصرفاته ، ولا يسأل عنه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وعلي كل حال فإن هذه الحادثة لا شأن لها ولا آثر بذلك الدور المشجع الذي انطلق بتأثير وفرة هذه الأموال في ميدان الجهاد في البلاد المغاربية (أنظر الطبري(ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) :"تاريخ الأمم والملوك" ، حوادث سنة ٢٧ – إبن قتيبة(ت ٣٦٧هـ/٩٨٠م) :" المعارف " تحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، القاهرة ، ص ١٩٥ – إبن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ:٩٤٠م) : " العقد الفريد " ، بيروت، جـ٢ ،ص ٣٦ ،جـ٤ ،ص ٢٠٠ – ابن كثير(ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) : " البداية والنهاية " ،القاهرة ١٩٣٣،جـ٧ ،ص ١٦٦ – حسين مؤنس : نفسه ، ص ٤٤ و ١٠٥ – محمد أحمد محمد : " الأحداث السياسية في مصر الاسلامية حتي نهاية العصر الفاطمي " ،دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٩٥م، ص ٥٠ و ٥١.

المنارة للاستشارات
www.

أنصاره من الجند العرب ممن أثبتوا كفاءة في فتح الأراضي المصرية ، وعلي رأسهم **معاوية بن حبيج**[٢٤] .

لم يكن أمام الأمويين بعد أن أحكموا قبضتهم علي الخلافة سوي السعي نحو استكمال حركة التوسع في البلاد المغاربية (افريقية) بعد أن خشوا تماما من الخطورة التي قد تحدث من توقف حركة التوسع وحيلولته دون تحقيق استراتيجيتهم .

ظلت الفسطاط – كذلك – طليعة الحاميات العربية المتجهة لفتح البلاد المغاربية بين عهدي قيادتين من أنصار بني أمية ، وهما **معاوية بن حديج وعقبة بن نافع** ؛ ويذكر عنهما ابن عبد الحكم بأنهما كانا (يغزون .... ثم يقفلون إلي الفسطاط حتي أتي أبو المهاجر....)[٢٥] .

خرجت الحملة من الفسطاط قاصدة بلاد المغرب (افريقية) سنة ٤٥ هـ/ تحت امره **معاوية بن أبي حديج** في نفر كبير من جند مصر وعدد كبير من الصحابة والتابعين حيث زحف رأسا من الفسطاط معترضا ما واجهه من مقاومة حتي بلغ سهل تونس ؛ وحط رحاله في ناحية قمولية[٢٦] وبتأثير الخبرة العسكرية في فتح مصر أوفد فريقا من جنده بقيادة **عبد الله ابن الزبير** لاحتواء المقاومة البيزنطية المتمركزة في حصون سوسة ، وفريقا آخر الي الداخل في الوقت الذي كان يباشر فيه عملياته في الشمال تأمينا لسهل تونس[٢٧] ، لكن **معاوية بن حديج** سرعان ما عاد أدراجه إلي الفسطاط بسبب مناعة الحصون علي السواحل حيث انتهي الأمر بعزله بأمر من والي مصر مسلمة بن مخلد ؛ علي أن كل ذلك لا يقلل من أهمية حملته التي حققت للقيادة العليا العربية في الفسطاط استطلاعات لنواحي كثيرة فضلا عما حققه من الغنائم ؛ وقد أفادت العمليات هذه في ان تهتدي بها القيادة اللاحقة لتسلك طريقا آخر غير طريق الساحل ؛ واختراق نواحي الصحاري بالداخل .

هكذا سلك **عقبة بن نافع** طريقا في حملته علي البلاد المغاربية (افريقية) متجها من الفسطاط (٤٩ – ٥٠هـ) صوب الأراضي الصحراوية والواحات بداخل هذه النواحي تفاديا لما وقع فيه سلفه **ابن حديج** ، وظل يباشر عملياته العسكرية حتي بلغ قمولية ، وشرع في بناء قيروانه عليها[٢٨] .

٢٤– قد أثبت فعالية مؤثرة في فتح مصر ود نقله مما جعله يحظي باختيار معاوية بن أبي سفيان للقيام بغزوته البحرية لرودس وصقلية (أنظر حسين مؤنس ، نفسه ، ص ١٢٥ حاشية).

٢٥ – المصدر نفسه ، ٢٦٦ .

٢٦– حسين مؤنس : نفسه ، ص ١٢ .

٢٧– البكري (ت٤٦٠هـ) : " المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب "، الجزائر١٨٧٥م، ص ٣٥ و ٣٦ – حسين مؤنس : نفسه والصفحة .

٢٨– ابن عذاري : نفسه ،جـ ١ ، ص ١٤ و ١٥ .

المنارة للاستشارات
www.

ولا يخفي علينا تلك الأهمية التي عادت بالنفع علي الجند العرب بتأثير تأسيس القيروان ، فقد غدت هذه المدينة معسكرا للجند ، ونواة لافريقية الاسلامية[٢٩] وسرعان ما تطورت الأمور في بلاد المغرب حتي بات العمل علي جعل القيروان معسكرا بريا وقاعدة للانطلاق العسكري صوب المغرب الأوسط والأقصي بديلا عن الفسطاط ضرورة عسكرية ملحة لإتمام الفتح دونما ترقب لوصول النجدات العسكرية من مصر ، وساعد علي ذلك أن **حسان بن النعمان** تمكن من تأسيس قاعدة بحرية كانت عاملا رئيسا في دعم العمل العسكري العربي[٣٠] ؛ وفي ظل هذا المنعطف لم يعد أمام مصر من دور سوي أن يباشر واليها الإشراف علي إدارة عمليات الفتح في المغرب موفرا لها كافة الوسائل التي تمكن القيادة العربية من اجتياز ما سوف يصادفها من صعوبات في المغرب الاقصي .

والحق أن المضي في فتح البلاد المغاربية كان لا سبيل له آنذاك سوي إسناد القيادة العربية إلي قيادة ساهمت في فتح مصر ؛ وحملت من الخبرات ما يمكنها من القيام بمهامها ، ونذكر في هذا السياق أنه علي الرغم من الدور الهائل الذي قام به عرب مصر تحت إمرة **عقبة بن نافع** لفتح المغرب الأدني وتأسيس قيروانه ، إلا أن **عقبة** بعد عودته في عهد الخليفة **يزيد** لاستكمال الفتح قد غاب عليه أهمية البربر حيث عاملهم بما ينطوي علي العسف ، الأمر الذي انتهي سنة ٦٤هـ بتمكين **كسيلة** منه واستشهاده في النهاية ؛ ودخول " **كسيلة** " القيروان أميرا إلي أن ولي **عبد الملك بن مروان** الخلافة سنة ٦٥هـ[٣١].

ولا مندوحة هنا من الإشارة إلي أن **عقبة بن نافع** في رحلته العسكرية الثانية لفتح المغرب لم يضع في أذهانه الأثار التي ترتبت علي السياسة الهادفة التي سلكها هو نفسه في أول عهد له بالمغرب حين طرق برقة ، وأدرك أهمية العلاقة بين العرب والقبط في تيسير السبيل لدخول العرب إلي هذه الناحية ، وما كان يجمع القبط بالبربر وما حققه **عبد الله بن سعد بن أبي سرح** من نجاح في بدء عملياته حين استخدم جماعات من القبط والبربر في جيشه حينما انطلق نحو إفريقية مارا ببرقة .

علي أن توفر قاعدتين " برية وبحرية " في عهد **حسان بن النعمان** لم يقلل من دور مصر العسكري لإتمام عمليات فتح بلاد المغرب ، اذ ظلت مصر آنذاك تساهم في

٢٩- تعرضت هذه المدينة بمرور الوقت للتغيير ، والاصلاح ، ومع ذلك فان أهميتها كنواة للحياة الحضارية في البلاد المغاربية منذ نشاتها أمر لا يختلف عليه الباحثون المتخصصون .

٣٠- راجع حسن أحمد محمود : " الاسلام والثقافة العربية في افريقية " ، القاهرة ١٩٦٣م، الجزء الأول، ص ٢٨٨ .

٣١- ابن عذاري : نفسه ، جـ ١ ، ص ١٨ .

كان عقبة قد عامل العناصر من أوربة بما ينطوي علي العسف ، ولم يفكر في استخدامهم أو تقريبهم بالعرب .

المنارة للاستشارات
www.

انشاء نظام حربي في افريقيا في عهد بني أمية ، فضلا عن تدخلات واليها في الوقوف علي أحوال القيادة العسكرية فيها وتنبيهها إلي سياسات تستقيم وأحوال البربر ، ومما ينهض دليلا علي ذلك ان **حسان بن النعمان** و**موسي بن نصير** كانا يقيما في مصر بتأثير وصايا عاملها **عبد العزيز بن مروان** ، وظلا بها فترة ، وسعيا بعد خروجهما للفتح إلي كسب ولاء البربر وتقريبهم من الفاتحين بما ينطوي علي المساواة[٣٢] ؛ في ظل رعاية كاملة من والي مصر الذي أمد حسان بالأموال تغطية لنفقات جنده وبرضا منه بإشارة من الخليفة **عبد الملك بن مروان**[٣٣].

نجح **حسان بن النعمان** بتشجيع من والي مصر في الدخول إلي قرطاجنة وتخريبها ؛ وتدمير تحصيناتها البيزنطية حتي استعاد ما بين برقة والمحيط[٣٤] ، وأوقع بالكاهنة في جبل أوراس سنة ٨٢هـ بعد ان استغاث به البربر وطالبوه بإزالة ما هم فيه من ظلم وتخريب[٣٥] .

ولأسباب لم تذكرها المصادر[٣٦] دبت الوحشة بين **حسان** ووالي مصر **عبد العزيز بن مروان** ، وانتهي الأمر بان قام الاخير بعزل الأول واحل محله **موسي بن نصير** لفتح المغرب الأقصى .

وكان أن لمس **موسي بن نصير** أحوال مصر في عهد واليها **عبد العزيز بن مروان** ، وأيقن أهمية سياسة التهدئة التي جمعت بين العرب والقبط ؛ وبين العرب والبربر ، لذا قرب اليه المغاربة من زغوانه وزناته وكتامة وهوارة ، وجاب في فتوحاته حتي بلغ الحدود الجنوبية للمغرب الأقص ، وكانت اكثر الغزوات في سنتي (٨٩ و ٩١هـ) حيث غنم مغانم عظيمة[٣٧] ،وبتأثير هذه الانتصارات كتب الخليفة الأموي **الوليد بن عبد الملك** إلي والي مصر **عبد الله بن عبد الملك** طالبا منه الابقاء علي قيادة **موسي بن نصير** بالمغرب مما كان دافعا لانطلاقه صوب شبة الجزيرة الأيبيرية سنة ٩٢هـ[٣٨].

وقصاري القول فإن مصر باتت طليعة التوسع العربي في البلاد المغاربية إلي أن نجح **عقبة بن نافع** في تأسيس قيروانه ، فأخذت افريقية شكل الولاية تطلق الجيوش العربية

٣٢- راجع البلاذري : نفسه ، ص ٢٣٧ .
٣٣- البلاذري : نفسه والصفحة
٣٤- ابن عبد الحكم : نفسه ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠
٣٥- ابن عبد الحكم : نفسه ، ص ٢٧٠ و ٢٧١ .
٣٦- ربما كان موسي بن نصير سببا في ذلك العزل ، حيث كان يرغب في ولاية افريقية في وقت كان بمصر يعمل بمثابة مساعد أو معاون لعبد العزيز بن مروان ؛ وليس من المستبعد ان يقوم بوشاية تلصق ضررا بحسان (راجع ما ذكرناه في ص ٦١ من كتابنا " الاحداث السياسية في مصر الاسلامية).
٣٧- ابن كثير : " البداية والنهاية " جـ ٩ ، صفحات ٩٥ و ١٩٠ و ١٩٣ و ١٩٤ .
٣٨- البلاذري : نفسه ، ص ٢٣٢ .

المنارة للاستشارات
www.

من قيروانها بدلا من الفسطاط في ظل اشراف ورعاية وتدخل من والي مصر حتي بسط **موسي بن نصير** سلطانه علي بلاد المغرب الأقصي .

مصر والإدارة العربية في بلاد المغرب آبان مرحلة الفتح

أصبحت مصر ولاية عربية اسلامية يحكمها عامل[٣٩] ممثل للخليفة ونائب عنه ، بمقتضي الشكل المثالي للمركزية الذي اتخذه الخليفة **عمر بن الخطاب** (١٣-٢٣هـ سبيلا للارتقاء بالدولة الإسلامية .

ونظرا لأن مصر – بعد فتحها – قد تمتعت بمزايا جغرافية واستراتيجية ، فقد تم تكليف عاملها بإتمام مهام حدودية من شأنها ان توسع من تقسيماتها الادارية ؛ وتزيد من مساحتها الجغرافية ، في اطار النظام الإداري المعمول به في الدولة الناشئة ، وبات لفاتحها وقائد الفتح فيها الحق في أن يستخلف نوابا عنه إذا ما أزمع المسير للقيام بهذه المهام[٤٠].

وكان طبيعيا أن يكون ارتباط المغرب (افريقية) بمصر جغرافيا واستراتيجيا بتأثير السياسة التوسعية العربية مدعاة لأن يكون حاكم مصر المباشر الأول لكافة العمليات العسكرية ذات الصلة بفتح النواحي المغاربية إلي حين الفراغ من احتوائها ، وبتأثير ذلك كله كان عامل مصر قائدا عاما للحاميات العسكرية المنوطة بهذا السبيل ، علي ذلك النحو الذي قام به **عمرو بن العاص** و**عبد الله بن سعد بن أبي سرح** ؛ وكان الأول ينيب عنه **عقبة بن نافع** علي برقة بينما كان هو يواصل بجنوده اجتياز نواحي طرابلس ، وفي عهد بني امية كان يقوم بنفس المهمة كل من مسلمة بن مخلد و**عبد العزيز بن مروان** .

وكان لذلك الارتباط العضوي والعسكري بين مصر وافريقية صداه في كتابات المؤرخين بحيث صار شاهدا علي أن تكون النواحي المغاربية (افريقية) جزءا ملحقا بولاية مصر يحكمها الوالي العربي في مصر يجبي خراجها ويقود جندها[٤١].

وكان أن خضعت التنظيمات الادارية في إفريقية لوالي مصر بوصفه صاحب إمارة عامة استكفائية[٤٢] ، بمقتضي عقد الاختيار الذي أسنده الخليفة إليه مكلفا اياه بالقيام

٣٩- اطلقت هذه اللقطة علي من يسند إليه مهمة القيام بأعباء الولاية ؛ وكان صاحبها يستمد من الخليفة سلطته ، الأمر الذي جعل المؤرخين يسمونه عاملا بمعني أنه ليس مطلق السلطة في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدولة الاسلامية ، وقد استعملت كلمة والي فيما بعد (راجع مقالنا بعنوان تقليد عمرو بن العاص ولاية مصر ، ص ١٣٨) .

٤٠- راجع البلاذري : نفسه ، ص ٢٢٢ ، (بيروت ،١٩٨٣) .

٤١- ابن كثير : " البداية والنهاية " ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ .

٤٢- تنقسم الامارة العامة الي نوعين ؛ هما استكفاء بعقد عند اختيار من الخليفة ؛ واستيلاء بعقد عن اضطرار ، وكانت هذه الامارة العامة في بواكير الحياة الاسلامية في الولايات مقصورة علي هذا النوع من الولاية (الموارديّ(ت ٤٥٠ه) : " الاحكام السلطانية " ، بيروت ١٩٨٢م؛ ص ٣٠ .

المنارة للاستشارات
www.

بالمهام السبعة ، وهي بالتحديد (تدبير الجيوش والقضاة والخراج وحماية الدين واقامة الحدود والامامة في الجمع والحج)[٤٣].

وتشير المصادر إلي أن عامل مصر خلال عهد الراشدين ، وفترة زمنية طويلة من عهد بني أمية كان يباشر جباية الخراج في برقة وطرابلس وافريقية (تونس)

ويقود جندها[٤٤] علي أن الجمع بين ولاية مصر والمغرب في قبضة عامل مصر ، قد أتاح فرصا هائلة لتدخل هذا الاخير في تصريف المسائل المالية ذات الصلة بمغانم الفتح في نواحي افريقية[٤٥] ؛ ومما لا شك فيه فان مثل هذا التمايز للوالي في مصر لا يعجب الإدارة المركزية ، وبالذات بعد أن انطلقت في عهد بني أمية بخطوات واسعة نحو آفاق جديدة في ميدان التوسع ، ولا غرابة هنا فيما رأيناه من الخليفة **معاوية بن أبي سفيان** حين رغب في أن يقلل من تدخل الوالي في مصر في شئون افريقية بإصدار قراره بفصل افريقية عن مصر[٤٦] علي أن نجاح الوالي في مصر في الوقوف علي أحوال نواحي المغرب ، جعل الخليفة **معاوية بن أبي سفيان** يعدل عن سياسة الرامية إلي فصل هذه النواحي عن مصر ؛ وهكذا جمع مسلمة بن مخلد في عهد هذا الخليفة سنة ٥١هـ بين مصر وافريقية فيما بين طرابلس حتي طنجة[٤٧] ؛ وأكد سياسة بعزل واليها **معاوية بن حديج** ، وتولية **عقبة ابن نافع**[٤٨] بدلا منه .

وازداد والي مصر مسلمة بن مخلد رغبة في أن يجمع في إدارته بين مصر والمغرب ، ففي سنة ٥١هـ زين للخليفة الأموي **معاوية بن ابي سفيان** أمر عزل **عقبة بن نافع** وجمعت له مصر والمغرب[٤٩].

وعلي كل حال فإن والي مصر ظل محتفظا بمكانتة العالية لدي الخليفة الأموي؛ بحيث صار من السهل عليه أن يتدخل في تعيين الولاة في نواحي المغرب (افريقية) طيلة القرن الأول الهجري ؛ ومن الثابت علي سبيل المثال أن العلاقة الوطيدة التي جمعت بين والي مصر **عبد العزيز بن مروان** و**موسي بن نصير** كانت سببا رئيسا في عزل **حسان بن النعمان** وتولية هذا الأخير بديلا عنه في افريقية ؛ وكان **موسي** من جانبه أمينا مخلصا **لعبد العزيز بن مروان** يطلعه علي مغانمه وانجازاته التوسعية حتي بلغ الحدود الجنوبية للمغرب الأقصى .

٤٣- الموارديي : نفسه والصفحة .

٤٤- ابن كثير : نفسه ، جـ٧ ، ١٦٥ .

٤٥- راجع ما ورد حول تدخل والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح في هذا السبيل (الطبري : نفسه ، حوادث سنة ٢٧هـ - ابن قتيبة ؛ المعارف ، ص ١٩٥) .

٤٦- راجع ما اشرنا اليه في كتابنا " الاحداث السياسية في مصر الاسلامية " ، ص ٥٣ وهامش ٤٦

٤٧- انظر ياقوت الحموي :" معجم البلدان " ، جـ٧ ، ص ١٨٩ .

٤٨- انظر " كتاب الاحداث السياسية " للمؤلف ، ص ٥٥ .

٤٩- راجع ابن عذاري ؛ نفسه ، جـ ١ ، ص ١٦ - وكتابنا : نفسه ، ص ٥٦ .

المنارة للاستشارات
www.

ولا يخفي علينا أن صله الولاة في المغرب بوالي مصر علي هذا النحو من الوئام كانت من وراء تلك النجاحات التي حققها المسلمون في اتباع سياسة إدارية عادلة وهادفة لعل أهم مظاهرها تكمن في تقريب البربر ؛ واستخدامهم في الوظائف ؛ ومساواتهم بالعرب ، وبالذات ما وقع في آيام الفتح وبالذات أيام **حسان بن النعمان** و**موسي بن نصير** .

وصفوة القول فان الادارة العربية في بلاد المغرب إبان مرحلة الفتح لم تنفصل – أبدا – عن مصر ؛ بل ظل إشراف والي مصر عليها طيله القرن الهجري الأول ؛ حيث كان يقوم بتنظيم عمليات الفتح ، وأحوالها المالية ، جبايتها وتصريفها ، ولم يتراجع ذلك الدور بعد نشأة القيروان وقيامها بدورها ، إذ لم تنفصل ادارة عمليات الفتح في بلدان المغرب ايام **حسان بن النعمان** وخليفته **موسي بن نصير** عن تدخل والي مصر وباشراف منه .

مصر والحياة العمرانية في المغرب ابان مرحلة الفتح

كان طبيعيا أن تصير الحياة العربية في المغرب تبعا لحاجة حياة الناس التي تدعو الي توفر الضروري في ضوء الظروف الموضوعية التي تمر بها ، وعلي جانب آخر ؛ فان الصيرورة العربية في المجال السياسي تكون محكومة بسياسة عربية موجهة لرسم الطابع العام لحياة العرب ؛ ويلبي الضرورات التي تتجلي فيها حاجة الجند العرب الذين زحفوا عليها من مصر بقصد فتحها ، وإتمام أركان الملك ، الذي يرمز الي السيادة العربية المتمثلة في الحاكم العربي عليها ممثلا ووالياً ونائبا عن خليفة المسلمين أصبح ضروريا بعد نجاح **عقبة بن نافع** في ولايته الأولي(٤٦ – ٥٠هـ) أن يحقق لجنوده الذين فتحوا افريقية (تونس) حياة عمرانية لا تختلف عما تم تحقيقه في مصر؛ وبما يتواكب مع ظروف تلك المرحلة المبكرة من أجل استقرار العرب ؛ وسيادة حكمهم، ولم يكن ذلك الا بأطر مرحلية تنتهي بتحقيق حتمية الاجتماع المدني ، بمعني ان تكون الحياة العربية بما ينطوي علي تلبية الضرورات العسكرية والتي سرعان ما تتحول الي ضرورات مدنية تلبي حاجة الناس، ومن هنا كانت الدعوة لنشأة المدن العربية المصاحبة لعمليات الفتح، ثم تمصيرها بتوفير الامارة والقيادة والقضاء فيما عرف في المصطلح بالامصار الاسلامية .

ولم تختلف الفكرة حول نشأة المدن في قديمها عنها بعد التطور عبر العصور، ذلك أنه من الضروري أن تتوفر لها مقومات، كثافة سكانية، وفائض من الغذاء وسلطة مركزية، وهندسة معمارية[٥٠] – وبطبيعة الحال – يكون تكثير العمارة[٥١] غطاءا يكفي لتغطية الحياة المدنية داخل المدينة الناشئة .

٥٠– راجع محمد عبد الستار عثمان: "المدينة الإسلامية" ، القاهرة، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٨م، ص ٢١ ، ووفقا للإكتشافات الأثرية الحديثة فإن نشأتها ترجع إلي حوالي الألف السابع قبل الميلاد.

المنارة للاستشارات
www.

أصبح البدء في بناء المدن بمصر والمغرب ابان مرحلة الفتح محكوما بضرورات من حيث اختيار الموقع ووفرة الأسباب ، وما انطوت عليه من مرافق ، وباتت هذه الضرورات محكومة بمرجعيات أفرزت روافد جاء بها الفاتحون لمصر والمغرب ؛ ونمثل هذه الروافد الأصول العربية الوافدة علي بيئتين جديدتين كان علي العرب الفاتحين معالجة ما انطوت عليه كلاهما من مظاهر لم يألفوها ؛ ونخص – هنا – بالذكر ما اتصل من هذه الأصول بالحياة العمرانية ، من ذلك أن البيئتين المصرية والمغاربية خضعتا – إبان – مرحلة الفتح لسياسة عربية لا تري إلا العمل حثيثا من أجل استكمال عمليات التوسع في هاتين البيئتين بما يتوافق والاستراتيجية العربية التي وضع أساسها النبي **محمد "صلي الله عليه وسلم"** ، ونتج عنها الدعوة إلي استقرار الجند العرب في البلاد المفتوحة بقصد الدعوة إلي الإسلام .

سرعان ما أصبح استقرار الجند العرب داخل الأمصار أمرا ضروريا في دعوة من أجل نشر دينهم الجديد وبما لا يجعل التفرغ للجندية معاكسا لتحقيق تلك الرغبة ، وكان علي الجند العرب الزاحفين من مصر لفتح بلاد المغرب أن يحققوا استقرارا للفاتحين في داخل هذه البلاد ؛ تبعا للتطور الذي يتوافق مع مخرجات بيئتها ، وفي ضوء الرغبة العربية لتحقيق ما لم تسمح به البيئة المصرية من آفاق خلال بواكير الحياة العربية فيها ، ذلك أن العرب في مصر أنشأوا مدينة الفسطاط ، واتخذوها حاضرة لولاية عربية جديدة مستطيبين حياتهم المدنية في أشكال انعزالية داخل فسطاطهم – عن الأهالي الأصليين إزاء ما كلفوا به لإتمام عملياتهم التوسعية بفتح بلاد المغرب مما جعلهم طيلة القرن الهجري الأول متفرغين للجندية بعيدا عن الاختلاط حفاظا علي دمائهم ؛ وحرصا علي آداء واجبهم الجهادي[٥٢] ، علي ان القيادة العربية في المغرب علي نحو ما مر بنا – لم تكن علي هذا النحو بعد أن انشأوا القيروان في ولاية **عقبة بن نافع** الأولي ؛ ذلك أن الاختلاط مع البربر ابان مرحلة الفتح لم يكن جزئيا أو نسبيا أو حتي تدريجيا ، بل كان اندماجيا يشهد عليه استخدام هذا العنصر في الجيوش العربية فضلا عن استخدام القبط ، الامر الذي سمح بعدم انعزالية الفاتحين عن الأهالي الأصليين بما ينهض تفسيرا لذلك الدور الذي قامت به مدينة القيروان في الحياة الحضارية بين البربر ، وفي هذا كله دليل علي أن الروافد العربية عالجت مخرجات البيئة المغاربية بشكل أرحب – بايجابية – بما لا نعكسه معالجات نفس هذه الروافد في البيئة المصرية .

٥١– يعد تكثير العمارة من أركان الملك ؛ والذي يمثل الركن الخامس بعد تنصيب الوزير واقامة الشريعة ، واعداد الجند ، وحفظ المال (انظر محمد عبد الستار عثمان : نفسه ، ص ٢٥).

٥٢– راجع ما توصلنا اليه من نتائج حول دراسة قد مناها في مقال بعنوان " مظاهر الحياة الاجتماعية في الفسطاط ابان مرحلة الفتح ص ٨٢ وما بعدها) .

المنارة للاستشارات
www.

اما التخطيط في بناء الفسطاط والقيروان زمن الفتح العربي ، فكلاهما متماثلان متشابهان ، ويمثلان الأصول الهندسية التي بنيت علي أساسها المدن في العصور اللاحقة ، وساعد علي حدوث هذا التماثل خضوع كليهما إلي سياسة عربية واحدة ، علي نحو ما أشرنا ، ونلمس هذا التشابه في اختيار الموقع وفلسفة البناء ، وما حواه من مرافق ومظاهر ، وللتفصيل حول هذه الجزئية نشير فيما يلي إلي ما يتصل بهذه المتشابهات :-

تحدثنا المصادر القديمة في شأن اختيار الموقع بأن الفسطاط والقيروان خضعتا في هذا السبيل للشروط العامة التي ينبغي توافرها في المدينة الإسلامية ، ويتجلي ذلك بوضوح في رفض الخليفة **عمر بن الخطاب** برغبة قائدة **عمرو بن العاص** في اتخاذ الاسكندرية حاضرة له في مصر ، مما جعل هذا الأخير يتحول إلي الفسطاط[٥٣] ليقترب من الصحراء ؛ ويسهل اتصاله بدار الخلافة[٥٤].

وتنفيذا لنفس هذه الشروط كان اختيار الموقع الذي نشأت فيه القيروان في المغرب الأدني ؛ حيث اختار **عقبة بن نافع** مكانا لها ، فجعلها بعيدة عن البحر داخل الصحراء حتي (لا تكون في مرمي الاساطيل المعادية) تفاديا لما قد يحدث من آثار وخيمة تنجم عن فقدان العسكرية العربية آنذاك – لقوة بحرية تمكنهم من الدفاع عن السواحل[٥٥]، ومنعا لحسابات العدو المتربص وراء البحار[٥٦].

وبالإشارة إلي فلسفة البناء فان الفسطاط والقيروان بوصفهما حاضرتين عربيتين إسلاميتين غاب عنهما خلال بواكير النشأة الصفة المدنية ، وظهر عليهما المظهر الحربي كلية، وبالذات مدينة الفسطاط[٥٧] ولم تكن الحاجة ملحة – آنذاك – لاتخاذ ضرورات تحصينية باستخدام أسوار حولهما لأن كليهما تتوافر فيهما الدواعي الأمنية ، فضلا عن أن قوام مستطيبيها كانوا من الجند العرب[٥٨].

واذا نظرنا إلي موقع المدينتين (الفسطاط والقيروان) عند الإنشاء– رغم اختلاف البيئتين – فقد حقق الضرورات التي تخدم المطالب للجنود العرب ، وهكذا ؛ فقد وفر نظام البناء للجند في الفسطاط الخروج إلي المزارع القريبة في أوقات الراحة حيث

٥٣– ابن الحكم ، نفسه ، ص ١٣٢ .

٥٤– ابن دقماك(ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٤م) : "الانتصار لواسطة عقد الامصار" ، بولاق ١٣٠٩هـ، جـ ٤ ، ص ٦١ و ٦٢ .

٥٥– راجع محمد عبد الستار عثمان : نفسه ،ص ١٤٠ .

٥٦– ابن عذاري : نفسه ، ص ١٩ .

٥٧– ظهر ذلك بوضوح في الفسطاط التي باتت اشبه بمعسكر للجند ، اكثر منها مدينة عامرة ، وذلك لأسباب تعود معظمها إلي اتخاذها قاعدة انطلاق للحاميات العسكرية الزاحفة لفتح بلاد المغرب طيله النصف الأول من القرن الهجري الأول .

٥٨– تميزت القيروان عن الفسطاط في هذا الخصوص ، حيث شارك العرب في الاستطابة المدنية جموع من البربر بتأثير النهج الذي ساسته القيادة العربية الفاتحة لبلاد المغرب .

المنارة للاستشارات
www.

يطلقون خيولهم لترعي ، وينشطون في الصيد[٥٩] ، فيما عرف بمرتبع الجند[٦٠] وقد لقيت نفس هذه السياسة قبولا عند **عقبة بن نافع** منذ مقدمه الأول علي رأس الجيش الفاتح للمغرب لما لها من أهمية في تحقيق مطالب جنوده ، وذلك فيما رواه الدباغ[٦١] ويؤكده ابن عذاري من أن **عقبة** كان يري ضرورة قيام مدينة القيروان بالقرب من أماكن الرعي حتي تكون للجند مرتبع بعيد عن غارات البربر ، وكان ذلك الموقع بادىء ذي بدء تشغله أشجار متشابكة في وسط صحراوي يفصله عن البحر .

وكان أن تحقق للجنود العرب الفاتحين بالمغرب الأدني فرص للخروج من القيروان إلي أماكن للرعي بصورة تكفل لهم حرية التنقل هنا وهناك وبما يسمح لهم بتبادل الصلات مع البربر ، وهو نفس النهج الذي اتخذوه في مصر عند خروجهم من الفسطاط الي مرتبعاتهم في مواسم الربيع ، ويعكس ذلك كله أقدم أشكال الاتصال بين الوافدين العرب والأصليين من سكان مصر والمغرب ، وكانت الحياة العامة داخل المدينتين عند النشأة تتوافق مع تقاليد النظام القبلي ، حيث تمركز العرب في الفسطاط داخل الخطط ، وكانت كل خطة تحتوي علي مرافقها ، وهو نفس الأنموذج الذي سار عليه تخطيط مدينة القيروان في المغرب الأدني ، وإعتمادا علي النتائج التي توصل اليها المحدثون ، نقر بان قطائع مدينة القيروان وخططها في مرحلة النشأة ، كما هو الحال في الفسطاط بمعني أن الخطط في المدينتين كانت علي أساس قبلي[٦٢] وأن المرافق فيهما جعلت التمصير ضروريا ومواكباً لبواكير النشأة ، وهكذا كان التبكير بإنشاء دار الإمارة ؛ وبجانبه المسجد ثم كان توزيع الخطط علي القبائل ليقيموا عليها الدور[٦٣] .

علي أن المسجد كان أول ما يختط في المدينتين في موقع وسط باعتباره النواة الأساسية ، وما حوله كانت تخطط كل مدينة[٦٤] ، لكن الضرورة الوظيفية أوجبت

٥٩- ابن عبد الحكم : نفسه ، ص ١٨٩ – ابن عذاري : نفسه ، ص ١٩ .

٦٠- نزح جنود العرب علي أرياف البلاد المصرية المجاورة للفسطاط بعد الفتح تأخذ مرتبعاتها بما يمثل أقدم أشكال الاتصال بين العرب والقبط في مصر (راجع عبد الله خورشيد البري : " القبائل العربية في القرون الثلاثة الاولي بعد الهجرة "، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٤٨ .

٦١- توفي سنة ٦٩٦ه/ ١٢٩٦م: انظر "معالم الايمان في معرفة اهل القيروان"، تونس، ١٢٣٠ه جـ ١ ، ص ٦٧ .

٦٢- راجع طاهر مظفر العميد : "تأسيس مدينة القيروان" ، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، المجلد الأول ،العدد ٢١، بغداد ١٩٧٧م، ص ٣٤٤ .

٦٣- نفسه ، ص ٣٤٥ .

٦٤- محمد عبد الستار عثمان : نفسه ، ص ٣٤ و ٣٥ .

المنارة للاستشارات
www.

مجاورة دار الامارة للمسجد[٦٥] ، وكان أن قام **حسان بن النعمان** بإعادة بناء مسجد **عقبة بن نافع** بعد عشرين عاما من انشائه بعد ان ضاق بالمصلين[٦٦].

أما الأسواق ؛ فقد ظهرت في الفسطاط والقيروان خلال الثلث الأخير من القرن الهجري الأول ؛ فقد خلت منها الأولي خلال العقود الأولي من هذا القرن ؛ وفي دراسة سابقة قدمناها في هذا الخصوص توصلنا إلي أن المواكب منها لمرحلة النشأة كان لتوفير حاجات أبناء القبائل ، بينما هي لم تأخذ شكلها الاصطلاحي الحقيقي الا مع نهاية عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ؛ وعلي هذا المنوال كان ظهورها – قريبا من ذلك بقليل – في القيروان ، واعتمادا علي النتائج التي توصل اليها علماء الآثار يمكن القول بأن عامل الخليفة **عبد الملك بن مروان** علي مصر قد بني بالفسطاط عدة قيساريات منها قيسارية العسل وقيسارية الحبال، وقيسارية الكباش ، وخلال نفس العهد كان بالقيروان سوق مجاور للمسجد من ناحية القبلة؛ وله (سقف جمع كل الحوانيت والحرف) ولما تعرض هذا السوق إلي التدمير والهدم أعاد بناءه الخليفة **هشام بن عبد الملك**[٦٧] ،وفي ذلك كله تأكيد علي أن التطور الذي أصاب حركة الحياة في المدينتين كان يحدث خلال فترة زمنية واحدة تعكس صيرورة الحياة الحضارية فيهما .

علي أن المعلوماتية في المصادر القديمة لم تعطنا في شأن بناء القيروان ما يكفي حول بنائها أيام عقبة بن نافع ؛ وتطورها أيام حسان بن النعمان ؛ وعما إذا كان لها من بوابات وشوارع وأزقة تخترق المدينة ، وتفصل خططها ومنازلها ، وما شابه ذلك من أمور معمارية وهندسية .

ومهما يكن من أمر فان الحياة العمرانية في مصر والبلاد المغاربية إبان مرحلة الفتح ظلت موصولة بالضرورات التي تتلاءم مع هذه المرحلة ، بمعني أن العمران اتجه الي تغطية المطالب العسكرية بحيث تسمح هذه التغطية باجتياز الصعوبات التي قد يصادفها الفاتحون .

ولا مندوحة هنا من الاشارة إلي أن العمران قد شمل أول ما شمل الحياة الصناعية التي كان علي مصر أن تساهم في تطويرها بالمغرب بهدف إحتواء السواحل ودرء المخاطر البحرية البيزنطية ، ولم يكن ذلك ممكنا إلا في ضوء ما تبوأته مصر من مكانة باتت موجهة بسياسة مركزية نابعة من دار الخلافة الأموية في دمشق ، بحيث صار والي مصر يباشر مثل هذه المطالب بوصفه همزة وصل بين القيادة العربية في المغرب ودار الخلافة ، وتجلت مثل هذه السياسة العمرانية التي باركها

٦٥- محمد عبد الستار : نفسه ، ص ٢٣٨ ، مما يذكر ان مسجد عقبة في القيروان قد حدد موضعه وتخطيطه دون ان يشيد عليه بناء ، حيث كانت الصلاة تقام علي أرض فضاء لا بناء عليها (راجع طاهر مظفر ، نفسه ، ص ٣٤٥) .

٦٦- راجع ظاهر مظفر ، نفسه ، ص ٣٥٠ هامش ٥٦ .

٦٧- راجع محمد عبد الستار عثمان : نفسه ، صفحة ٢٥٤ .

المنارة للاستشارات
www.

الخليفة **عبد الملك بن مروان** ، ونفذها واليه علي مصر **عبد العزيز بن مروان** لانجاح السياسة التوسعية باستكمال الفتوحات فيما تبقي من النواحي المغاربية .

وكان أن ظهرت الحاجة آنذاك إلي الدور المصري في بلورة سياسة عمرانية تلبي مطالب التوسع العربي حين أزمع **حسان ابن النعمان** – في هذا الاطار – في تأسيس قاعدة للأسطول الاسلامي في افريقية درءا لمحاولات الروم البحرية[٦٨]فخرج من مصر عديد من الأسر القبطية وبعض الملاحين المشتغلة بصناعة السفن لتدريب العرب في المغرب وأهل البلاد علي ركوب البحر وانشاء الآلات البحرية ؛ وذلك بأمر من والي مصر آنذاك – **عبد العزيز ابن مروان** – فيما أشار اليه البكري[٦٩]من أن هذا الوالي أمر بتوجيه ألف قبطي (بأهله وولده) لإنشاء دار الصناعة فيها تنفيذا لأمر الخليفة **عبد الملك بن مروان** في هذا السبيل[٧٠] ، ومما لا شك فيه أن قدرة مصر علي إنتاج الأخشاب المناسبة لاخراج مثل هذه الصناعة بتأثير توفر مساحات شاسعة في بلادها مغروثة بالغابات كان من وراء تفوق قبطها في صناعة السفن ، بفضل حكوماتها التي حافظت عليها وعملت علي حمايتها علي مر العصور[٧١] واقتصر دور البربر في هذا الخصوص علي إمداد دار الصناعة هذه بما تحتاجه من مواد خام لصنع المراكب[٧٢] ، بجانب ما كان يصلها من مصر .

وقصاري القول فان الارتباط بين مصر وبلاد المغرب في الميدان العمراني خلال القرن الهجري الأول يعكس الضرورات التي دعت المغاربة ألي صنع ما يلبي حاجة العسكر في مجال الحماية . فضلا عن حالات الاستيطان العربي بما يكفل توفير الضروري من مطالب الحياة ، وسرعان ما أخذت مثل هذه المظاهر نحو التوسع حتي تنوعت في عصور لاحقة علي مرحلة الفتح .

مصر والنشاط الثقافي في بلاد المغرب إبان مرحلة الفتح

كان الفتح العربي لمصر فاتحة لهجرات عربية متوالية ، وكان من بين الوافدين عليها نفر من الصحابة العلماء الذين قاموا بتعليم المصريين اللغة العربية ، والقرآن الكريم ، وما يتعلق به من العلوم ؛ وكان أن قدر لنفر من هؤلاء العلماء أن

٦٨– راجع حسن أحمد محمود " " الاسلام والثقافة االعربية في افريقيا " ، ص ٢٨٨ .

٦٩– المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، ص ٣٤ .

٧٠– لم أجد ترحيبا من المعنيين بالدراسات التاريخية المغاربية الذين شاركوا في فعاليات المؤتمر الذي انعقد بمدينة وجدة المغربية بهذه الجزئية اكتوبر ٢٠١٢ ، علي اعتبار أن تاريخ السواحل الذي يمس بلادهم لا يقر بتصديق كلام البكري ، وأقنعتهم بان الأمر يخص مهارة القبط في صناعة السفن ، ووفرة بلادهم من الأخشاب اللازمة لهذه الصناعة ، وقدرتهم علي ركوب البحر .

٧١– المقريزي(ت ٨٤٥ه/ ١٤٤١م) : "المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار" ، بولاق ١٢٧٠ه، جـ١ ، ص ١١١ .

٧٢– سيدة الكاشف : " مصر في فجر الإسلام " ، ص ٩١ .

المنارة للاستشارات
www.

صاحبوا الجيش الفاتح لبلاد المغرب خلال عهدي الراشدين والأمويين ؛ وقاموا بتعليم أبنائها من البربر نفس هذه العلوم ؛ وبتأثير ذلك كله تكونت في كل من الفسطاط والقيروان مدرستين دينيتين كان لهما أكبر الأثر في الدعوة إلي الاسلام بين القبط والبربر .

وعلي الرغم من أسبقية الفتوح العربية في مصر عن مثيلاتها في المغرب ، فان الثانية باتت الأسبق من حيث التأثير في مجال الدعوة إلي الإسلام بفعل خضوع الفاتحين في الفسطاط لحياة الانعزال والانغلاق عن أقباط مصر وانشغالهم بفتح المغرب بطريق الجهاد في وقت كان استخدام البربر في الجيوش العربية أيام بواكير الفتح منذ عهد الخليفة **عثمان بن عفان** في ظل قيادة **عبد الله بن سعد بن أبي سرح**[٧٣] عاملا فعالا في خلق فرص لتبادل الصلات بين الفاتحين والبربر .

وغني عن البيان فان الصلات بين العرب والبربر في تلك الآونة المبكرة في عمل عسكري مشترك يجعلنا نقر ببدء الاختلاط الفعلي بين العنصرين ؛ كما يجعلنا نقطع باندماجية حضارية بينهما لا تخلو من فائدة في مجال الدعوة إلي الإسلام في وقت لم تتحقق فيه هذه النتائج في مصر التي تركز فيها دور الصحابة خارج الفسطاط علي نشر علوم الدين بعد فترة زمنية من إتمام عمليات الفتح .

أصبح دور الفسطاط في مصر ينطوي علي المجال العسكري بالدرجة الأولي لحاجة الفاتحين إلي استخدامها معسكرا للجند أكثر من كونها مدينة ثقافية عامرة ، ولذلك تقلص دورها الثقافي لفترة طويلة الأجل من القرن الأول الهجري[٧٤] حتي اذا أخذت ظاهرة الانغلاق وانعزالية العرب فيها ينفرط عقدها منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، تيسر لهذه المدينة القيام بدورها الحضاري في مجال التثقيف الديني والعلمي تبعا لتطور الهجرات العربية[٧٥] ، التي أحدثت في مصر تحولا ملموسا منذ عهد الخليفة **هشام بن عبد الملك** (١٠٥ – ١٢٥ هـ) بفضل هجرة **قيس** الكبري[٧٦] في هذا المجال ، وياتي كلام المقريزي تأييدا لما ذهبنا إليه وذلك في قوله (ولم ينتشر الاسلام في قري مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحجاب مولي

٧٣– سيدة الكاشف : " مصر في فجر الاسلام " ، القاهرة ١٩٤٧، ص ٣١٤ .

راجع ما سجلناه من إشارات حول مشاركة البربر في جيوش عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٧هـ في محاولة لفتح طرابلس ، وضمن الحشود الاسلامية في معركة فاصلة عند سبيطلة (الاحداث السياسية في مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتي سقوط الدولة الفاطمية " ، ص ٤٧ .) .

٧٤– راجع ابن عبد الحكم : " فتوح مصر " ، ص ١٣٣ و ١٧٥ .

٧٥– ابن عبد الحكم : " فتوح مصر " ، ص ١٤٣ .

٧٦– راجع Wiet comb ,Repertoire chronologique T,II pp 34 - 200

المنارة للاستشارات
www.

سلول قيسا بالحوف الشرقي،فلما كان بالمائة الثانية من سنة الهجرة كثر انتشار الاسلام بقري مصر ونواحيها)[٧٧].

وأضيف في هذا السياق عاملا آخر أعظم تأثيرا في تحول قسم من المغاربة ألي الاسلام في مرحلة مبكرة تسبق ما أقبل عليه قبط مصر ؛ ويتمثل ذلك في العامل الديني عند القبط والمغاربة ، فالأقباط معروفون بتعصبهم الشديد لقبطيتهم ، وأشد استمساكا بمسيحيتهم ؛ التي خالفوا بها المذهب الكنسي البيزنطي ؛ وتحملوا من أجل ذلك عبئا قاسيا ، واضطهادات شديدة الوطأة[٧٨]دينية ومالية[٧٩]، وظلوا يقاومون المستعمر البيزنطي ، بأشكال وصور مختلفة حتي أنشأوا الرهبنة[٨٠]، وصار لهم وبفضلهم في بواكير العصور الوسطي ما عرف في المصطلح بالديرية ، وفي ذلك كله ما يشير إلي صعوبة قبولهم لعقيدة جديدة وافدة ، علي حين كان يسيطر علي المغاربة الطابع الوثني ؛ وباتوا في نظر الفاتحين العرب مادة خام يسهل تشكيلها ، علي عكس عادة القبط الذين دانوا بدين سماوي ، ومن هنا لم تر القيادة العربية بدا من بذل الجهد الواعي من الدعوة إلي دينهم الجديد ، من خلال مشاركتهم في الجيش الفاتح .

ولا مناص من أن نؤكد علي أن البيئة المغربية أفرزت شعبا يغلب عليه الطابع الوثني ، ووجد الفاتحون فيه مادة طيعة مهدت لهم قطرتهم قبول الاسلام والترحيب به منذ العقود الأولي من القرن الهجري الأول ؛ ولا يخفي علينا أن الصحابة الذين شاركوا الجند العرب الزاحفين من مصر علي بلادهم بقصد الفتح والدعوة لدينهم هم أول من كون المدرسة الدينية حين بدأت في القيروان بعد أن استطابوا حياتهم منذ نشأتها سنة ٥٠هـ في عهد عقبة بن نافع أيام مقدمه الأول .

واذا كانت المدرسة الدينية في الفسطاط ممثلة للقاعدة العلمية الاسلامية الأولي في مصر ؛ فإن القيروان بفضل علمائها الزاحفين عليها من مصر باتت بتأثير ما كان لها من مدرسة دينية لها دورها في الانتشار العربي الاسلامي الأساس الذي جعل للعروبة والاسلام قاعدة كبري للاشعاع الحضاري والثقافي في إفريقيا ، والذي تواصلت أهميته منذ تأسيسها سنة ٥٠هـ وعبر القرون الخمسة الهجرية الأولي[٨١].

٧٧- راجع ما أشرنا اليه بهذا الخصوص (الاحداث السياسية في مصر الاسلامية منذ الفتح حتي نهاية سقوط الخلافة الفاطمية ، ص ٨٨).

٧٨- Wiet (Gaston: L1Egypt Arabe(Histoire de l', Nation Egyptien) Paris 1973, T,II , p 17 -18

٧٩- ساويرس بن المقفع : " سير الآباء البطاركة " ، الجزء الأول ، ص ١٠٧ .

٨٠- Munier : L'Egypte Pyzantine , p 76

٨١ – محمد بن الحبيب بن محمد الغضبان : " مدينة القيروان بين نشاط السكة وهاجس الشرعية" (من خلال ضرب النقود منذ الفتح الإسلامي الى نهاية الدولة الزيرية)، مجلة آفاق الثقافة والتراث ، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، ا(لإمارات العربية المتحدة ،مارس ٢٠٠٩م،العدد ٦٥، ص ٦٣ .

المنارة للاستشارات
www.

سرعان ما أصبحت مدينة القيروان المدينة الروحية والمقدسة في الغرب الإسلامي لتميزها بأنها ممثله لجذور الحضارة العربية الأسلامية ؛ ومضاهاتها في رأي المغاربة بالمدينة المنورة (يثرب) أهم مدن الشرق الاسلامي – آنذاك – لكونها قد تطورت مع الزمن وشملت أفكار ومعتقدات وأقوال مما جعلت منها (دار هجرة بجدارة)[٨٢] .

سرعان ما أخذت القيروان تؤدي دورها العروبي بفضل ساكنيها من العرب الوافدين من مصر بوصفهم الفاتحين ، وظلت العربية تأخذ طريقها نحو التجذر في هذه المدينة حتي اكتمل مع نهاية القرن الأول الهجري ؛ وصارت السكة العربية شاهدة عليه عندما عرب نشاط السكة بذكر إسم إفريقية بالعربية دون وجود الهمزه دلالة علي القيروان بعد سنة ١٠١هـ التي انتهت فيها ذكر إسم إفريقية بالأحرف اللاتينية Afrika، وذهب جيل من الدارسين إلي أن إسم إفريقية علي النقود الأموية هو (إحالة الي مدينة القيروان)[٨٣] .

وأخذ التنافس يجري بين المدرستين المصرية والمغربية مع نهاية القرن الأول الهجري، فصاعدا ، وذلك من خلال العلماء الذين استوطنوا الفسطاط والقيروان ، ويظهر ذلك التنافس في فترات لاحقة علي مرحلة الفتح ؛ فيما تجلي من ظهور لعلماء المالكية[٨٤]خلال العصر العباسي ، وقد تزامن ظهور طبقة من العلماء والفقهاء المالكية في كليهما خلال نفس الفترة[٨٥].

ومهما يكن من أمر فإن العرب الذين وفدوا من مصر علي بلدان المغرب بقصد الفتح أو الاستطابة المدنية لمهمة دعوية ، قد كان لهم الدور الأكبر في تمصير تلك البلدان بتأثير الدور الذي قامت به مدينة القيروان ، كما تجلي هنا الفضل الأكبر فيما قاموا به من دور في حركة التعريب ونشر الاسلام في فترات واكبت أحداث الفتح ؛ الأمر الذي لم تسمح لهم الظروف الموضوعية في مصر بأن يتخذوا في انحائها بمثل ما فعلوه في المغرب الا بعد فترة زمنية طويلة الأجل ، وباتت تلك المحاولات من أجل نشر الاسلام والعربية العلامات المضيئة في وضع قاعدة إسلامية علمية نهضت بها الحياة الثقافية في بلاد المغرب قاطبة بتأثير ما صار من فعاليات في هذا الميدان خلال الفترات اللاحقة علي زمن الفتح .

---

٨٢ – محمد بن الحبيب : نفسه ، ص ٦٤ .

٨٣– محمد بن الحبيب : نفسه ، ص ٦٤ .

٨٤ – دخل في مصر أولا مذهب الامام مالك رغم أقدمية مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان (راجع المقريزي : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٣٤) .

٨٥ – راجع محمد بن الحبيب : نفسه ، ص ٦٥ .

المنارة للاستشارات
www.